مجلة جامعة تكريت للعلوم القانونية والسياسية
مجلة علمية دورية محكمة
السنة/6 العدد/21
اذار 2014 – جمادي الاولى 1435
ISSN: 2073 1140

مواقف عربية من الاحتلال الفرنسي لمصر 1801-1798

أ.م.د. معد صابر رجب
كلية الآداب / جامعة تكريت

وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان

كلية القانون
College of law - University of Tikrit

مواقف عربية من الاحتلال الفرنسي لمصر 1798-1801

أ.م.د. معد صابر رجب
كلية الآداب / جامعة تكريت

المقدمة

بالرغم من تعدد الدراسات حول الاحتلال الفرنسي لمصر عام 1798م، سواء" العربية منها والأجنبية ، فأنها أبرزت الاحتلال بأنه صراعا" فرنسيا" بريطانيا" في المنطقة العربية الواقعة على الطريق بين أوربا ومستعمراتها في الهند، إذ كانت فرنسا قلقة من ضعف الدولة العثمانية وتكالب الدول الأوربية عليها مثل بريطانيا والنمسا وروسيا للاستيلاء على ممتلكاتها، فأرادت فرنسا أن تكون مصر من نصيبها، لذا فأن أحداث احتلالها لمصر، نجد تفاصيله في أغلب الدراسات التي تناولت الموضوع ، الاّ أن تلك الدراسات عندما تتطرق للمقاومة المصرية أغفلت المواقف العربية من الاحتلال ، متناسية إن الشعب العربي سواء" في ولاية مصر أم في الولايات العربية الأخرى، هو نفسه لما يحمله من الشعور نحو المحتل الغاصب، لأي مكان من البلاد العربية والإسلامية .

لذا فإن البحث يهدف إلى إبراز الدور المشرف الذي وقفه أبناء الشعب العربي مع إخوانهم في المقاومة المصرية للاحتلال الفرنسي. وبما إن المقاومة المصرية هي رد طبيعي للاحتلال، لكون إن شعب مصر في المواجهة المباشرة له،

وأنه ذكر في مصادر عديدة متمثلا" في دور الجامع الأزهر وفي ثورتي القاهرة الأولى والثانية، لذا سأتطرق للمواقف العربية المساندة لذلك الشعب من الولايات العربية الأخرى، بعيدا" عن المواقف الرسمية التي اتخذها الولاة والحكام الذين بدورهم كانوا يمثلون الموقف السياسي للدولة العثمانية التي يتبعون لها . تلك المواقف العربية التي صدرت من أبنائها بعفوية ومثلت ردا" طبيعيا" تلقائيا" نتيجة ما جبل عليه الشعب العربي. وعندما أذكر كلمة مواقف عربية فأعني بها الدور العربي الجهادي للاحتلال الأجنبي الكافر، وبدون تأثيرات خارجية على مواقفه تلك، سواء" من الدولة العثمانية وجيشها وولاتها، أوجهات أجنبية أخرى مؤثرة في الولايات العربية، التي بتوفيق الله استطعت أن أوثق لبعض من تلك المواقف، بما حصلت عليه من مصادر ووثائق حول الموضوع، مستثنيا" مواقف ولاية مصر ومقاومتها للاحتلال، التي لم أسترسل فيها لأنها خارج نطاق بحثنا، ويحتاج كل موقف منها إلى بحث أو رسالة لكي نعطيه حقه، ولكي يتعرف القارئ والباحث العربي على تلك المواقف التي تطرقت عليها، ويضيف لها مواقفا" أخرى لم يتيسر لي الحصول عليها.

تمتاز المواقف العربية من الاحتلال الفرنسي بأنها وقعت في ظروف سيئة، ومعاناة معيشية صعبة كانت تمر بها الولايات العربية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، بسبب ما كانت تعانيه الدولة العثمانية حينذاك، والتي كانت تسيطر على معظم تلك الولايات، كما أن أخبار الاحتلال كانت لم تصل لأبناء الولايات العربية، إلا بعد وقت ليس بالقصير عن طريق التجار والحجاج وطلبة العلم الذين كانوا يتعاملون ويمرون بمصر. لذا فان تلك المواقف في تلك الظروف كانت لها ميزتها الخاصة والمهمة ، فلا وسائل إعلام تنقل وقائع أحداث الاحتلال بالصوت والصورة،

ولا وسائل اتصال مباشرة، كما هي حال وسائل الإعلام والاتصالات في وقتنا الحالي.

تعد المواقف العربية أول تصدي شعبي لاحتلال ارض عربية مسلمة في التاريخ الحديث ، على عدو متفوق عليه بالعدة والعدد، إذ تألف الجيش الفرنسي عند غزوه لمصر من ثمانية وثلاثون ألف رجلا"، متفوق على أهالي المنطقة من جميع النواحي الأخرى، مثل الأمور العسكرية والاقتصادية والتنظيمية، في الوقت الذي كان فيه حكام الولايات العربية غير قادرين على حماية ممتلكاتهم وأراضيهم التي تتبع رسميا" للدولة العثمانية، والتي بدورها ليس لها النية في تحرير ولاية مصر من الاحتلال الفرنسي، الذي يختلف عن أهل البلاد في اللغة والدين والأعراف، فعند دخول الفرنسيين مصر أخذوا يتشددون في جمع الضرائب، واستولوا على أموال الأوقاف المصرية، وهدموا كثيرا" من المباني الأثرية بحجة التنظيم، ودخلوا الجامع الأزهر بخيولهم وعاثوا بالأروقة والحارات التابعة له، وكسروا القناديل، وهشموا خزائن الطلبة. وتمثل موقف الدولة العثمانية من تلك الأعمال كلها بالوقوف مع بريطانيا عدّوة فرنسا التقليدية آنذاك، وكأنها بموقفها ذلك تستبدل محتلا" أوربيا" بآخر، وأنها أهملت أو أغفلت القوة الحقيقية التي يجب أن تستند عليها، والمتمثلة بالشعب العربي المسلم الذي من دونه لن يتحقق النصر الحقيقي على الأعداء ولن تكون هناك مقاومة شريفه للاحتلال .

تم تقسيم البحث إلى عناوين رئيسة وأخرى جانبية توضح المواقف العربية، والتي ترجم البعض منها إلى أفعال ضد المحتل، كلما وجد العربي لمساعدة أخوانه في مصر سبيلا. فجاء الموضوع الأول موضحا" الظرف التي كانت تعيشه الولايات العربية أثناء الاحتلال الفرنسي، لكي نعرف من خلاله كيف انبثقت تلك المواقف في

تلك الظروف الصعبة، مشيرا" إلى مساندة أخوانهم في مصر كلما اشتدت المقاومة ضد الاحتلال. أما العنوان الثاني من البحث فيوضح موقف ولايات المشرق العربي المتمثلة في أهل الشام والحجاز واليمن وولايتي بغداد والموصل، وكما كانت تقسيماتها الإدارية حينذاك في وقت الاحتلال الفرنسي. وجاء العنوان الأخير موضحا" لبعض مواقف من المغرب العربي، متمثلة بطرابلس الغرب ومراكش. وقد كان لبعض المصادر أهمية في كتابة البحث، مثل كتاب (مصر في القرن الثامن عشر)، لمؤلفه محمود الشرقاوي. وكتاب(تاريخ مصر الحديثة)، لمؤلفه فرغلي علي تسن. وكتاب(عجائب الآثار في التراجم والأخبار)، للمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي.

أولا": الاحتلال الفرنسي والبلاد العربية:

إن طبيعة البلاد العربية منذ دخولها تحت السيطرة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي، كانت على شكل وحدات إدارية تعرف باسم الولايات والمتصرفيات ، وقد بلغ عددها أحدى عشر ولاية، وأربع متصرفيات [1]، ولم يكن للعرب طيلة الحكم العثماني كيان سياسي خاص بهم، ولم يمارسوا سياسة مباشرة في بلدانهم، إلا أنهم حافظوا على ولائهم للحكم العثماني، مادام ذلك الحكم حافظ على النظام، وحماية ولاياتهم من الخطر الخارجي. ولاسيما إن السلطان العثماني كان يتمتع بسلطة عسكرية ومدنية مطلقة في الولايات العربية ، الاّ أن حامياته العسكرية

1- الولايات العربية التي كانت تحت السيطرة العثمانية هي: ولاية الحجاز، وولاية بيروت، وولاية اليمن، وولاية الموصل، وولاية بغداد، وولاية حلب، وولاية سورية،وولاية تونس،وولاية الجزائر، وولاية طرابلس الغرب، وولاية مصر، أما المتصرفيات فهي: متصرفية القدس، ومتصرفية بنغازي، ومتصرفية دير الزور، ومتصرفية جبل لبنان، وترتبط تلك الولايات والمتصرفيات بالعاصمة العثمانية استانبول. فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ترجمة الفارابي، بيروت، 1980، ص 28.

في الولايات العربية قد أخلدت إلى حياة الاستقرار، بعد إن أخذت تظهر بوادر الضعف على الدولة، ولاسيما في السيطرة على أمور ولاياتها، حتى أصبحت بعض الولايات العربية تطالب بعودة تلك الحاميات إليها، بعد انسحابها منها بسبب حروب الدولة العثمانية في أوربا، والتي استلزمت منها سحب بعض من حامياتها من الولايات العربية ومنها ولاية مصر، للاشتراك في تلك الحروب مما أدى إلى ضعف واضطراب سلطتها فيها. فضلا" عن إن حياة السلاطين الداخلية لم تتوافق مع حياتهم العسكرية التي كانوا عليها أيام قوة دولتهم، لأنهم أهملوا قيادة الجيوش في الحملات العسكرية، ومالوا إلى حياة البذخ والترف والراحة، كما وأصبحت السلطة والنفوذ بأيدي الحريم العثماني، فكان كل ذلك مؤشرا" واضحا" على مظاهر الضعف في الدولة العثمانية [1]. كما أن ولاة الدولة العثمانية، كانوا لا يستمرون في مناصبهم غالبا" الأ سنة أوبعض السنة، لأن السلطان كان يخشى أن يستبد هؤلاء الولاة بالسلطة، ويستقلوا عن الخلافة. واتضحت عوامل الضعف أيضا" وبشكل كبير أبان الحرب العثمانية- الروسية(1768-1774م)، إذ أثبتت تلك الحرب ضعف الدولة العثمانية، ولاسيما بعد الهزائم العسكرية التي لحقت بها، والتي كان من نتائجها عقد المعاهدة المعروفة باسم (كوجك كينا رجي)، في الثاني والعشرين من شهر تموز عام 1774م، إذ ضمت روسيا شبه جزيرة القرم إليها، وأبرزت المعاهدة التفوق الروسي الكبير على الدولة العثمانية. فضلا" عن التنافس الأوربي على الدولة العثمانية في الوقت ذاته، والذي من نتائجه كما ذكرنا احتلال فرنسا لمصر. إذ أرادت فرنسا بذلك أن تضع يدها على أقصر طريق بري بين الشرق والغرب، مما أدى بالمقابل إلى زيادة نشاط بريطانيا العسكري والسياسي والاقتصادي في الولايات العربية، وعدّت

1- فرغلي علي تسن، تاريخ مصر الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، 2002، ص 34.

الاحتلال الفرنسي تهديدا" خطيرا" لمصالحها في الخليج العربي، ومركزها في الهند. وإن كل تلك الأسباب جعلت من الدولة العثمانية عدم استطاعتها تحمّل المسؤولية للدفاع عن مصر، عندما تعرضت للاحتلال. ولم تقوم بمهامها الأساسية، بعكس بريطانيا التي أقلقها الاحتلال، وبالرغم من ذلك القلق فأن بريطانيا أكدت تلك المسؤولية، وأشارت بان مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية، وان السلطة العثمانية هي صاحبة الشأن في ذلك [1].

لقد توهم الفرنسيون وفي مقدمتهم نابليون بان الشعب العربي في ولاية مصر سوف يأخذ موقفا" غير فعالا" إذا ما احتل بلادهم، وأكد ذلك نابليون في خطابه عندما دخل مصر بأنه: ((جاء ليخلصهم من حكامهم المماليك الذين لا يمثلونهم))[2]. فعند نزول القوات الفرنسية في غرب الإسكندرية في الأول من تموز 1798م، تم تنظيم تلك القوات لاقتحام أسوارها ودخول المدينة. فتصدى لها أهل المدينة وقاوموا المحتل حتى ساعة متأخرة من الليل، إذ نشب القتال في شوارعها، وأن الإسكندرية ضحّت في ذلك اليوم نحو ثمانمائة بين شهيد وجريح. وبالرغم من تلك التضحيات فأن تلك المقاومة استطاعت تكبيد الفرنسيين بعض الخسائر، حتى إن القائدين الفرنسيين(كليبر، ومينو) قد جرحا في تلك المعارك، وقتل عددا" آخرا" من الضباط الفرنسيين أثناء عمليات المقاومة كان من بينهم الجنرال(دبوى) قائد الحملة الفرنسية في القاهرة [3]. وقد كتب الجنرال (مينو) واصفا" شجاعة أهل الإسكندرية واستبسالهم للدفاع عنها، في كتابه الموجه إلى قائده نابليون يقول فيه :((إن الجنود{ ويقصد

1-المصدر نفسه، ص 94-95؛ محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي ، ط3، القاهرة، 1940، ص51؛ كارل براون، السياسة الدولية والشرق الأوسط، ترجمة عبد الهادي حسين جياد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987، ص 33؛ محمود علي الداوود، الخليج العربي والعمل العربي المشترك، مطبعة الرشاد، بغداد، 1980،ص 34-35.

2- محمد عبد الرحمن حسين، نضال شعب مصر 1798-1956، القاهرة، 1979،ص17.

3- فرغلي علي تسن، المصدر السابق، ص 97-98.

جنود الجيش الفرنسي } يستحقون الثناء لما بذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر التي كانت تحيط بهم لان الأعداء {يقصد أهالي الإسكندرية} قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم)) [1].

لقد أبلى شعب مصر بلاء" حسنا" في المعارك ضد المحتل الفرنسي، ولاسيما عند دخول نابليون القاهرة في السابع والعشرين من شهر تموز سنه 1798م. إذ واجه جيش الاحتلال شعبا" صلبا" تربط أبنائه الروح الوطنية وحب الاستشهاد، ولاسيما عندما شارك وقاد علماء الأزهر تلك المعارك وفي مقدمتهم المجاهد عمر مكرم، متمثلة بثورتي القاهرة الأولى التي استمرت ثلاثة أيام من (21-23) من شهر تشرين الأول سنة 1798م ، والثانية التي استمرت مدة شهر تقريبا" من (20 آذار إلى 20 نيسان) سنة 1800م، والتي كانت خير دليل على مقاومة الشعب المصري للاحتلال، حتى أدرك نابليون أن عليه إعادة النظر في كيفية التعامل مع الشعب العربي في مصر. ولا أستطيع الخوض في تفاصيل الحملة الفرنسية والعمليات العسكرية لنابليون في مصر فضلا" عن عمليات المقاومة المصرية ضده، لأنها كم ذكرت تعد خارج نطاق بحثنا.

ثانيا": مواقف عربية من المشرق العربي:

إن وحدة المواقف والمشاعر اتجاه الاحتلال الفرنسي في مصر جاء نتيجة للروابط التي تربط أبناء الشعب العربي الواحد، سواء" في مصر أو خارجها، مثل الانتماء التاريخي المشترك في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فضلا" عن طبيعة الحكم العثماني الذي لم يضع قيودا"على حركة السكان في الولايات

1-عبد الرحمن الرافعي، تأريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1981،ج1، ص172.

العربية لممارسة نشاطاتهم الاقتصادية، والتي أدت إلى سهولة الحركة والتنقل بينها واختيار البلد الذي يستطيع الشخص العربي أن يمارس نشاطه الاقتصادي فيه بحرية، والذي كان له الأثر في تقوية العلاقات الاجتماعية على حد سواء، كل ذلك كان من العوامل التي ساعدت إلى حد كبير في قوة ترابط أبناء الولايات العربية، كما كانت عليه سابقا" قبل السيطرة العثمانية [1].

كان للجامع الأزهر في القاهرة والذي يقصده الطلاب من البلاد العربية والإسلامية، قد عزز العلاقة بين أبناء الشعب العربي، إذ يلتقي فيه الطلاب والعلماء من مختلف بلاد المسلمين إذ كان يضم في أروقته التي عرفت أسمائها باسم البلد الذي جاء منه هؤلاء الطلاب ، مثل رواق البغداديين ورواق الحجازيين ، ورواق اليمنيين ورواق أهل الشام. إذ شارك الطلاب الساكنين فيه جهاد الأزهر في طرد الفرنسيين من خلال قيادة زعمائه للثورات التي انطلقت في مصر، إذ أصبح الأزهر واحدا" من أهم معاقل الجهاد والصمود في وجه المحتل الفرنسي [2].

1- مواقف ولاية الحجاز:

كان للحجازيين سواء" في مصر أو خارجها حضورا" واضحا" في مقاومة الاحتلال الفرنسي منذ اليوم الأول لنزوله أرض مصر ، ولاسيما في الإسكندرية والصعيد [3]. كما ولهم في الحجاز مواقفا" وردود فعل على دعوة أمير الحج المصري مصطفى بك المسلمين للجهاد ولاسيما بعد أن تم إيقاف إرسال المحمل الشريف

1- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية أبان العصر العثماني 1517-1798 من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، المجلة التاريخية المغربية، العدد 29-30، السنة العاشرة، تونس، ص417.

2- عمار محمد علي حسين الطائي، المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي لمصر(1798-1801م)، رسالة ماجستير(غير منشورة)، جامعة بغداد، كلية الآداب، 2003،197.

3- صلاح أحمد هريدي علي، الحجازيون وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الإسكندرية في العصر العثماني، مجلة المؤرخ العربي، العدد 33، بغداد، 1987، ص278-280.

والكسوة من بلاد الشام ومصر إلى الحجاز، ويعد المحمل من كبرى قوافل الحج [1]. وقيام احد علماء المسلمين من نزلاء مكة المكرمة والمعروف باسم (محمد الجيلاني)، الذي حث الحجازيين للجهاد ، وأورد تلك المواقف المؤرخ المصري المعروف الجبرتي عند ذكره لحوادث شهر شعبان سنة 1213هـ الموافق الخامس من شهر شباط سنة 1799م بالقول: ((إن رجلا" مغربيا" يقال له الشيخ الجيلاني كان مجاورا" لمكة والمدينة والطائف فلما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز وإنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك لان هذا الشيخ يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ... واتعظ جملة من الناس وقدّموا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو ستمائة شخصا" وقد تزايد عددهم حتى وصل إلى أربعة آلاف محاربا" بعد خروجهم من جدة))[2]، ويضيف الجبرتي بقوله: ((وركبوا البحر إلى القصير مع من انضم إليهم من أهل ينبع ... ووقع بينهم وبين الفرنسيين بعض حروب))[3]. فيما ترك الجيلاني قبل وفاته في شهر نيسان عام1799م، وصية إلى مقاتليه، دعاهم فيها إلى الجهاد في سبيل الله والصبر على ملاقاة الأعداء. وهكذا كان أهل الحجاز معينا" مهما" ومؤثرا" بالمال والرجال مع المقاومة في مصر ، وكلهم رغبة" واستعدادا" للاستشهاد في سبيل الله ومساندة أخوانهم، ولاسيما بعد وصول أخبار دخول الفرنسيين إلى بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين [4].

1- محمود الشرقاوي، مصر في القرن الثامن عشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1957، ج3، ص 64؛ منير كيال، محمل الحج الشامي، دمشق، 2006، ص8.
2- نقلا" عن عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص 175-176.
3- المصدر نفسه.
4- عمار الطائي، المصدر السابق، ص 197؛ عبدا لله محمد أبو داهش، موقف أدباء الجزيرة من الحملة الفرنسية على مصر1798-1801، مجلة العرب، ج 11-12، الرياض، الجماديان، 1406هـ/ كانون الثاني- شباط1986م، ص756.

إن المتطوعين الذين جاءوا من ارض الحجاز أطلقت عليهم المصادر الأجنبية بـ(المكيون) أي أهل مكة ، وان هذه التسمية خاطئة لأن المتطوعين ليس جميعهم جاءوا من مكة بل انضم إليهم إخوانهم من المدينة المنورة والطائف وجدة وينبع [1]. وقد عبروا البحر الأحمر وتجمعوا في ميناء القصير على السواحل المصرية، وقد تنبه إليهم نابليون وأدرك أهمية ذلك الميناء، فوجه إلى قادة جيشه ضرورة احتلاله، للحد من قدوم المتطوعين الحجازيين إليه [2].

لم يكن وصول الحجازيين إلى ميناء القصير، نهاية الصعاب لرحلتهم الطويلة التي قطعوها من بلادهم ، فإن عليهم أن يواصلوا الطريق حتى مدينة (قوص) ويبلغ طول الطريق بينها وبين القصير حوالي مائة وستون كيلومترا". وكانت القوافل تقطع هذا الطريق آنذاك في مدة لا تقل عن خمسة عشر يوما"، وهي مسافة طويلة بالنسبة لمقاتلي الحجاز وهم يحملون ثقل السلاح على أكتافهم ، الأ أن ذلك كان لم يثنيهم عن ملاقاة الفرنسيين ، وضرب أسطولهم الذي أرسله نابليون من السويس لاحتلال ميناء القصير . فدارت معركة أجبرت الغزاة المحتلين الرجوع إلى السويس . ويصف لنا المؤرخ كريستوفر هيرولد الحجازيين بقوله: ((إن ضراوتهم لا يعدلها ألا انحطاط مستوى معيشتهم ، لأنهم معرضون أبدا" للرمال الساخنة والشمس المحرقة ، ومحرمون من الماء ، لارحمة في قلوبهم ولا عهد ، فهم صورة مجسمة للرجل المتوحش كأبشع ما يتصوره العقل . وان هؤلاء الرجال من سلالة أسلافهم ،

1- عبد العزيز محمد الشناوي ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، دار الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، 1967،ص 49.

2- ج. كريستوفر هيرولد. بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد اندراوس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1968، ص 356.

الذين فتحوا نصف العالم قبل احد عشر قرنا". وقد جاءوا ليقاتلوا الفرنسيين الكافرين بنفس الإيمان)) [1].

2- مواقف أهل الشام:

أما أهل الشام فقد وقفوا وقفة مشرفة ضد الفرنسيين منذ اليوم الأول للاحتلال وهذا ليس بغريب على بلد أرتبط ارتباطا" وثيقا" مع أهل مصر اقتصاديا" واجتماعيا"، فقد ساند التجار الشاميين المقاومة المصرية بالمال والسلاح، إذ قاموا بنقل السلع بالقوافل سالكين الطرق الصعبة تفاديا"لرقابة الاحتلال الفرنسي، وليأمنوا وصولها إلى شعب مصر [2]. وعندما نودي للجهاد ((هاج الشباب في كل حدب وفي كل جهة وأجتمع في قطر الشام لهذا القصد والمرام عالم لايحصى ولا يرام غيرة لنصرة الدين وطرد عساكر الفرنساوية)) [3].

كان لأهالي عكا موقفا" استبسلوا فيه للدفاع عن مدينتهم عندما قاد نابليون حملته العسكرية على بلاد الشام عام 1799م، لمواجهة العثمانيين والبريطانيين فلم يوفق في مسعاه وقام بحصاره لمدينة عكا في الثامن عشر من شهر آذار من نفس العام، الذي دام قرابة ثلاثة أشهر [4]. وكانت تلك الحملة في نفس الوقت أيضا" موجهة ضد المقاومة التي تصدت لوجودهم في مصر، ولاسيما بعد أن اتصلت تلك المقاومة بعلماء مصر وأعيانها لإعلان الثورة في وجه الاحتلال الفرنسي .[5] وبالرغم من إقدام نابليون على إعدام ثلاثة الآف أسيرا" عربيا" من أهل الشام رميا"

1- المصدر نفسه ،ص 334.
2- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المصدر السابق ، ص480.
3- نقلا عن عمارا لطائي ، ص 208.
4-فلاديمير لوتسكي ، المصدر السابق ،ص77.
5-جلال يحيى، المجمل في تاريخ مصر الحديث (1517-1805)، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د.ت،ص180.

بالرصاص بالقرب من شاطئ البحر المتوسط، مدعيا" عجزه عن أطعامهم وعن حراستهم في بلاد بعيدة عن قواعده، فأن هذا العمل لم يضعف المقاومة في تلك البلاد ،إذ شعر المقاومون وأدركوا ولاسيما في عكا، أن مصيرهم سيكون الإعدام إذا ما استسلموا، فاستبسلوا في الدفاع عن مدينتهم واستماتوا في المحافظة على أسوارها [1]، وتعهد أحد شيوخ منطقة جبل القدس الشيخ عثمان أبو غوش والذي توفي أواخر سنة 1811م، بتجنيد خمسمائة محاربا" لمقاتلة الجيش الفرنسي [2]. وأن وصول المتطوعين الشاميين من حلب، كان من أهم الأسباب في صمودها، حتى قدّرت المصادر الفرنسية أعدادهم بنحو سبعة الآف محاربا" إلى جانب قوات دمشق الزاحفة نحو عكا، مما كان لها الأثر البالغ في إفشال الحصار، فضلا" عن وصول أخبار عن حدوث أمور في داخل فرنسا في غير صالح نابليون من حكومة الإدارة فيها، مما أدت إلى إجبار نابليون على الانسحاب إلى مصر ثم مغادرته منها في الثالث والعشرين من شهر آب عام 1799م، ليوكل الجنرال كليبر قيادة الحملة [3].

كان لدور المجاهد العربي المسلم سليمان الحلبي، الذي قدم من حلب إلى مصر في أعوام الاحتلال، إذ كان أحد طلاب الجامع الأزهر قبيل الحملة الفرنسية، فأقدم في الرابع عشر من شهر حزيران عام 1800م ، على قتل قائد الجيش الفرنسي كليبر بخنجره ، فقد أصبح بفعله أنموذجا" للمشاركة الشامية في مقاومة الاحتلال، والتي بدورها كانت من الأسباب التي عجلت في جلائهم عن مصر، وجعلته أمرا"

1- فلاديمير لوتسكي ، المصدر السابق ،ص78.
2-عادل مناع ، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني(1800-1918)، بيروت، 1995،ص58-59.
3-محمود الشرقاوي،المصدر السابق ، ص98-100.

حتميا". إذ أخذ الجيش الفرنسي يطالب قواده بالعودة إلى بلادهم، ولاسيما بعد حادثة مقتل كليبر [1] .

3- المواقف اليمنية:

كان لليمنيون الدور البارز في حماية الحصون والموانئ البحرية المطلة على البحر الأحمر من الجيش الفرنسي، بعد أن عاد من مشاركته لإخوانه في عكا، وعدم السماح للفرنسيين بالمرور بالموانئ اليمنية ولاسيما ميناء عدن ومضيق باب المندب لتعقب المجاهدين. هذا إلى جانب حماية الطرق البرية التي تربطها بميناء القصير، بعد فشل القوات الفرنسية في مواجهة المجاهدين العرب المسلمين فيه، من أن ترجع الجيوش الفرنسية عبر هذا الطريق إلى اليمن [2]. وبالرغم من قلة المصادر التي تحدثت بشكل صريح عن مواقف أهل اليمن من الاحتلال الفرنسي لمصر فان ذلك يؤكد إن الشعب اليمني لم يتخلف عن نصرة إخوانهم فيها .

أما موقف أهالي اليمن فقد تناقل عنهم إن احمد طبا طبا أو مايعرف (احمد جرار) الذي خرج من اليمن وبصحبته مقاتلين من الراجلة والفرسان، يحمل زاده وأثقاله وخيامه، والتقى بمكة مع المتطوعين . ويؤكد ذلك المؤرخ لطف الله جحاف بقوله : ((إن أربعين رجلا" من أهل اليمن اشتركوا مع الجيلاني في حملته التي انطلقت من الحجاز للاشتراك في المقاومة المصرية)) [3].

1- عماد عبد السلام رؤوف، حملة نابليون على مصر سنة 1798 محاولات لإعادة تغيير الحدث ، مجلة دراسات تاريخية ، بيت الحكمة ، العدد1 ، (كانون الثاني – شباط – آذار)، 1999،ص75.

2- لطف الله أحمد جحاف، نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، نشر وتحقيق، سيد مصطفى سالم، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء،1989، ص149-150؛ سلطان ناجي، التاريخ العسكري لليمن 1839- 1967، عدن، 1976 ،ص10.

3- لطف الله أحمد جحاف، المصدر نفسه، ص 100.

4- مواقف ولايتي بغداد والموصل :

في ولايتي بغداد والموصل يصف لنا المؤرخ الموصلي ياسين بن خير الله الخطيب العمري المتوفى عام 1816م، الذي يصف تفاصيل الاحتلال الفرنسي، وذكر أثناء ذلك ردود فعل ولايته اتجاه الاحتلال بقوله:((ارتفعت في المساجد والجوامع أيادي العلماء والمشايخ والعباد ، وتضرع الخطباء من اجل نصرة المجاهدين ، وتطوع العديد منهم لمناصرة أشقائهم المصريين))[1]، وان رجلا" من الكرد اسمه (دير رجب بن حسن الزيباري الكردي العقراوي) من أهالي بلدة عقره التابعة لولاية الموصل، إذ رأى في المنام رسول الله (**صلى الله عليه وسلم**) يأمره بالجهاد، فسار إلى مصر مع عشرين رجلا" من الكرد لنصرة إخوانهم، كلما ادلهم الخطب واشتد الصراع [2].

ويشير المؤرخ العمري أيضا" إلى ذهاب المجاهدين من أبناء الموصل إلى مصر وعودتهم بعد أن ساهموا في القتال ضد الغزاة ولاسيما في حصار عكا [3]. وتمثل موقف تلك الولايتين التبرع بالمال والمشاركة العسكرية ، إذ أشار المؤرخ عماد عبد السلام بأن (فرمانا") عثمانيا" وجهه السلطان سليم الثالث (1789- 1798م) إلى والي بغداد حينذاك سليمان باشا الكبير (1780-1802م)، وفيه تطلب الدولة العثمانية إرسال كل من هو قادر على حمل السلاح من غير القوات النظامية، وحث

1- ياسين بن خير الله الخطيب العمري، غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر، الموصل، 1944،ص58.
2- عمار الطائي ،المصر السابق ،ص214.
3- إبراهيم خليل أحمد ، الموصل والحركة العربية والقومية في مطلع القرن العشرين ، موسوعة الموصل الحضارية، المجلد الرابع، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1992،ص130.

المجاهدين على أن يثبتوا في القتال [1]، علما" أن الدولة العثمانية كانت تجند أهل البلاد العربية بالقوة في خوض حروبها خارج تلك البلاد، وهذا يدل على طواعية المشاركة العربية في الجهاد وتعاظم العداء للحملة الفرنسية، ولاسيما عندما توضحت نوايا نابليون للسيطرة على الخليج العربي، ليقطع الطريق المؤدي للهند عبر أراضي ولاياتهم، فقد كانت الهند بؤرة الصراع الاستعماري بين الطرفين، في حين أن الخليج العربي مرشحا" أن يكون ميدانا" من ميادين ذلك الصراع لضرب المصالح البريطانية [2].

وبالرغم من تلك المواقف التي تمثل ولايتي بغداد والموصل، فأن أسباب عدة وقفت عائقا" في مشاركة أكبر ضد الاحتلال الفرنسي، وهي وقوعه تحت تأثير بريطانيا التي عملت جاهدة على منع أي مشاركة عراقية سوى خدمة مصالحها في المنطقة ، الأ إن الطلبة من بغداد والموصل الدارسين في الجامع الأزهر، كان لهم دورا" في المشاركة الفعلية في الثورات التي قام بها طلبة وأئمة جامع الأزهر كما تم ذكره سابقا" [3].

ثالثا": مواقف من المغرب العربي:

كان للمغرب العربي مواقفا" ومشاركة فعلية ، تمثلت بابناءها الذين أبوا الأ أن ينالوا الشهادة في سبيل الله، وأن يستغلوا فرصة الجهاد التي منحهم الله بها في بلادهم وأهم تلك المواقف:

1- عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق ،ص215؛ صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، 1974،ص66-68.

2- صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي 1798-1810،مطبعة العاني، بغداد، 1979، ص 75؛ باسم حطاب الطعمة، تغلغل النفوذ البريطاني في العراق 1798-1831م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1985، ص46.

3- عبد العزيز محمد الشناوي ،دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي أبان الحكم العثماني، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، 1971 ،ص35.

1- مواقف من طرابلس الغرب:

في طرابلس الغرب كانت مشاعر أهلها مع إخوانهم في مصر ، إذ سعوا بكل الوسائل المتاحة لمساعدتهم سواء" بالأسلحة والعتاد والخيول، كانت قد زودتهم بها الدولة العثمانية عبر الصحراء الغربية ومديرية البحيرة، وقد رفعوا راية الجهاد ضد الفرنسيين. وأشارت المصادر المصرية إلى المساهمة تلك، بأن قوة قد وصلت من طرابلس الغرب وهي مؤلفة من بضعة آلاف من البدو قدموا من الصحراء الغربية، وهي تروم محاربة القوات الفرنسية ونجدة أخوانهم، مما اضطر نابليون إلى إرسال كتيبة من قواته للتنكيل بهم ، وأقدم بضربهم بنيران مدفعيته في قرية سمهود التابعة لمدينة البحيرة [1]. ومن ضمن الذين قدموا من طرابلس الغرب وشاركوا في تلك المعركة القائد محمد المهدي المولود في مدينة درنة ، إذ وصل إلى واحة سيوه والتقى فيها بقافلة من الحجاج المغاربة والتي تضم أيضا" تونسيين وجزائريين، فمالت له قلوبهم لفصاحته وقوة شخصيته، وحثهم على الجهاد فاتبعوه، وتكون جلَ جيشه منهم، والذي نزل بهم إلى دمنهور وحارب هناك الفرنسيين، ويقدر عدد تلك القافلة بأربعمائة من الرجال الأشداء [2]. وكان شعارها الذي رفعته هو:(الجهاد أفضل من الحج)، لكن سرعان ما وصل مفهوم ذلك الشعار إلى أسماع استخبارات الفرنسيين في القاهرة ، فأسرعوا وأحاطوا بالقافلة وأجبروها على عدم التوقف في مصر، والذهاب إلى مكة مباشرة [3]، لكن الشيخ محمد المهدي الذي وصفته المصادر الفرنسية بقولها:((انه رجل غامض ... كان يسمي نفسه بالمهدي ويلقب نفسه

1- عمر عبدا لعزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1980،ص134.

2- محمود الشرقاوي، المصدر السابق، ص124؛ أمل بشور، حملة بونابرت إلى الشرق مخطوطة تقولا الترك، لبنان ، 1993 ،ص174.

3- محمد عبدا لكريم الوافي، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية على مصر، طرابلسي، 1984،ص308.

بالملاك وكان تحت أمرته عدد من المسلمين الذين لا يقهرون ... حيث تمكن الشيخ وأتباعه الأشداء من الإفلات فنزلوا في البحيرة))[1]، قد غيّر وجهته نحو مدينة البحيرة، وكان ذلك كفيلا" بإهاجة تلك المنطقة التي سرعان ما شهدت ثورة عارمة عرفت بثورة المهدي، والتي تردد ذكرها في المصادر الفرنسية لما كان لها من تأثير كبير في التاريخ العسكري للحملة الفرنسية في مصر. ودارت معركة كبيرة هناك بين الطرفين في قرية سمهود التابعة لمدينة البحيرة ، واستمرت تلك المعركة سبع ساعات اظهر فيها الطرابلسيون التضحية بحياتهم فعرضوا أنفسهم لفوهات البنادق الفرنسية متقدمين بشجاعة حتى وصلوا إلى فوهات المدافع ، فكانوا" رجالا" مؤمنين ومخلصين أقوياء متفانيين في تحقيق النصر[2]. وفعلا أجبروا الفرنسيين بالانسحاب إلى الرحمانية [3]. ولم يتمكن الفرنسيون بالقبض على المجاهد المغربي محمد مهدي الدرناوي ، الذي التجأ إلى الصحراء مرة أخرى ثم واصل جهاده من هناك ، في حين بقيّ رجاله يواصلون تصديهم لقوات الاحتلال الفرنسي [4].

1- المصدر نفسه ،ص308-309.
2- لمزيد من المعلومات ينظر كمال الدين حسين عبد الرحيم ، بونابرت والقصير والمعارك الرئيسية في جنوب الصعيد ، القاهرة ، 1996 ،ص412 ؛ محمد فرج ، النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية ، سلسلة كتب ثقافية ، الرقم 181، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د. ت ،ص55.
3- علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، ط5، دار المعرفة، لبنان، بيروت، 2008،ص301.
4- محمود الشرقاوي ، المصدر السابق ،ص73-74.

2- مواقف مراكشية:

كان لمراكش مواقفا" من خلال أبنائها الذين يدرسون في الجامع الأزهر ويعيشون في مصر، وكانت أعداد كبيرة منهم يتوجهون إلى مصر عن طريق قوافل الحج التي لها الدور البارز في إيصالهم إلى مصر بحجة الذهاب لأداء فريضة الحج ، حتى لا تثير الشكوك الفرنسية حولهم، وكلهم رغبة في الجهاد إلى جانب إخوانهم من شعب مصر [1] .

إن قوافل الحج عند قدومها من بلادها إلى مصر عبر الصحراء الغربية في موجات متلاحقة ، كانت معينا" لا ينضب لإمداد رجال المقاومة فيها إلى جانب المساعدات التي كانت تقدمها من الأسلحة والمتطوعين [2]. ولم يقتصر دورهم في داخل مصر فقط بل تعدى إلى خارجها، فبعد توجه الحملة الفرنسية إلى بلاد الشام عام 1799م، شهدت أرضها وصول أعدادا" كبيرة من المتطوعين المراكشة للدفاع عنها، ولاسيما من المشاة إذ بلغ عددهم خمسة آلاف مقاتلا"، وجلهم من الذين استماتوا في الدفاع عن يافا [3]. ويؤكد لنا ذلك اعتراف أحد المصادر الفرنسية بدور هؤلاء المتطوعين في التصدي لقواتهم الزاحفة نحو مدينة يافا، وهي في طريقها نحو عكا من العام نفسه، مشيرة إلى إقدام الفرنسيين إلى إعدام العديد منهم على شاطئ البحر المتوسط [4]. مما دفع نابليون أن يفرض أقصى العقوبات على كل أسير عربي يقع بين يديه وذلك نتيجة الانتصارات التي حققوها وما أضافوه من دعم مادي

1- عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، دور المغاربة في تاريخ مصر الحديث-القسم الثاني القرن التاسع عشر، القاهرة، د.ت، ص66-67.

2- محمد أنيس ، المجتمع المصري في ظل الإقطاع ، مجلة الكاتب ، العدد 51 ، السنة الرابعة ، القاهرة ، 1965 ،ص22.

3- عزت حسن أفندي ، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوطة عثمانية،ترجمة جمال سعيد عبد الغني ، دمشق، د.ت، ص201.

4- كريستوفر هيرولد،المصدر السابق ،ص377؛ صبري فالح الحمدي، قضايا تاريخية عربية ودولية، دار الحوراء التجارية للطباعة والنشر، بغداد، 2006، ص53-54.

ومعنوي للمدافعين العرب، إذ وقفوا إلى جانب إخوانهم من الحجازيين وأهل الشام [1].

ويذكر المؤرخ هنري لورنس إن الأسرى العرب الذين أعدمهم نابليون من الذين أمسكت بهم القوات الفرنسية، وأكد بأنهم ما أمسكت عددا" منهم حتى يأتي أمرا" بإعدامهم فورا" [2].

ويذكر أيضا كيف إن احد قادة نابليون المدعو (الجنرال دوجه)، كان يلح على القائد العام نابليون طالبا" منه تصريحا" بان يتم الإعدام بقطع رؤوسهم بالسيف لتوفير الذخيرة وذلك لكثرة أعدادهم [3]. وأن دل على شيء فأن ذلك يدل على بشاعة ووحشية القوات الفرنسية المحتلة في تعاملها مع المقاومة العربية الشريفة، وفي المقابل يدل على مدى وقوة وصلابة المجاهدين المغاربة المتصدين لهم مع أخوانهم في بلاد الشام. وكانت تلك إحدى الأسباب الرئيسة التي برر بها نابليون انسحابه من أمام أسوار عكا، والتسريع في جلاء الفرنسيين عن مصر، ولاسيما بعد توقيع اتفاقية العريش في كانون الثاني من عام 1801م، والتي كان من نتائجها الانسحاب الفوري للقوات الفرنسية عن ارض ولاية مصر العربية، والذي دام الاحتلال فيها مدة ثلاث سنوات وواحد وعشرين يوما" [4].

1- عمار الطائي، المصدر السابق، ص230.
2- هنري لورنس وآخرون، الحملة الفرنسية في مصر، ترجمة بشير السباعي، دار سيناء للنشر، 1995، ص385.
3- المصدر نفسه .
4- محمود متولي، دراسات في تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي، دار الثقافة، القاهرة، د. ت، ص235.

الخاتمة

أن حالة الضعف والتدهور التي مرت بها الدولة العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، جعل الدول الأوربية وفي مقدمتها فرنسا بان تحتل مصر إحدى الولايات التابعة لها عام 1798م ،وذلك لموقعها الحيوي من جانب، ولثرائها من جانب آخر، ولكي تضع فرنسا يدها على مقدرات الدول الكبرى حينذاك مثل بريطانيا وهولندا والبرتغال والتي كان جميعها لها مصالح في المنطقة للوصول الى الهند، لذا فان ردود فعل الدولة العثمانية تجاه ذلك الاحتلال لم يكن بالمستوى المطلوب كما هو معروف عنها في التصدي للدول التي تريد أن تنال من أراضي سلطنتها، ولكونها اكبر دولة أسلامية حينذاك، فان مسؤوليتها في الدفاع عن مصر لم يكن بالمستوى الذي كانت عليه الدولة العثمانية، ولا سيما عن الحجاز الذي يتبع مصر ويضم فيه قبلة المسلمين، فبدلا" من أن تعلن الجهاد لمقاومة المحتل، وكما حصل في بداية القرن السادس عشر الميلادي مع الاحتلال البرتغالي الذي أراد أن يدنس مقدسات المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فأنها وقفت مع بريطانيا التي لها مصالح في المنطقة العربية ضد ذلك الاحتلال، وكأنها تستبدل محتلا" أوربيا" بآخر مما جعل أبناء الشعب العربي وفي مقدمتهم أبناء شعب مصر أن يواجهوا المحتل بأنفسهم ويعبروا عن رفضهم لذلك المحتل الغاصب لأرضهم ، ويسجلوا مواقفا" مشرفة في الدفاع عن أرضهم وشرفهم ومعتقداتهم التي تأمرهم بذلك، وأنهم جعلوا نصب أعينهم بأن الدولة العثمانية قد تخلت عن مبادئها التي قامت عليها دولتها، ففي وقت الرخاء كانت خيرات مصر تذهب للعثمانيين والمماليك، ولما جاء وقت الشدة تخلى عنها هؤلاء وتركوا أهلها يواجهون الاحتلال.

كانت مواقف العرب في مساندة إخوانهم في مصر متباينة وحسب ظروف كل بلد من البلاد العربية ، فنجد بعض المواقف العربية لم تسمح لها الظروف للمواجهة الفعلية والمباشرة مع المحتل فعبرت عن مواقفها بالمشاركة المالية والدعم المعنوي للمجاهدين، وعبر الآخرون عن طريق مشاركة أبنائها القاطنين في مصر ، الذين كان لهم الدور الواضح في المقاومة سواء من التجار أو طلاب العلم في الجامع الأزهر والذي يعد مقرا" للثورة ومحرضا" لها .

إن بعض المواقف العربية قد شاركت فعليا" ضد المحتل الفرنسي بالرغم من سوء طرق المواصلات وبعد المسافة والتي لَمْ تمنعهم من المشاركة، فسلكوا اخطر المسالك للانضمام إلى صفوف المقاومة ، ولم ينتظروا الأوامر من رؤسائهم الذين كانوا بدورهم ينتظرون موقف السلطان العثماني من ذلك الاحتلال. وهذا ما عبرت عنه قوافل الحجاج في طرابلس الغرب لينظموا مع إخوانهم القادمين من مراكش مستغلين فريضة الحج للتعبير عن جهادهم الأكبر ومساندتهم لإخوانهم في مصر، وكانت للمواقف العربية تلك دورا" واضحا" في استنزاف قوة الجيش الفرنسي وانهياره من الداخل ، إذ جعلت أفراد ذلك الجيش أن يطلبوا من قادتهم بالعودة بأسرع وقت ممكن إلى بلادهم فتحقق الانسحاب فعلا" في كانون الثاني عام 1801م .